

الجناس التصحيفي بين كونه ظاهرة أدبية حقيقية أو مجرد خطوات تائهة في الفكر السوسيري

Anagrams between being a real literary phenomenon or mere stray steps in Saussurian thought

كافية بلهوشات^{1*}

¹ جامعة الطارف، (الجزائر)، kafiabelhouchet29@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/09/30

تاريخ المراجعة: 2022/06/30

تاريخ الإيداع: 2022/03/01

ملخص:

لم يكن موعدا في النصف الثاني من القرن العشرين مع التصورات الحقيقية للظاهرة اللسانية مع دو سوسير، بل كان في انتظارنا لغز ثاني ومتاهة جديدة مع دفاتر الجنس التصحيفي، ظل محتواها غير مرئي لفترة طويلة، كان يود المحلل أن يثبت من خلالها موضوع "الكلمة الرئيسية" التي كانت تحكم آيات الشعراء اللاتينيين واليونانيين... الخ، إلى أن افتقده للدليل الكامل على هذه الفرضية دفعه إلى التزام الصمت، هذا الصمت الذي فتح أبواب لأسئلة ظلت معلقة، لذلك سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الوقوف على فحوى تلك التراكمات الأصلية المدفونة في الأعماق الصوتية بمد جسور مع التحليل النفسي الفرويدي. الكلمات المفتاحية: الجنس التصحيفي، ساتورنيان، النهج الحسابي، القصديّة، فرويد، اللاوعي.

Abstract:

Our date in the second half of the twentieth century was not with the real perceptions of the linguistic phenomenon with de Saussure, but a second puzzle and a new labyrinth awaited us with the anagrams, the content of which remained invisible for a long time, through which the analyst would like to prove the subject of "The main word" that used to govern the verses of the Latin and Greek poets ... etc., until he lacked complete evidence for this hypothesis, which prompted him to remain silent, this silence that opened doors to questions that remained outstanding, so we will try through this research paper to identify the content of those original structures In the sonic depths to build bridges with Freudian psychoanalysis.

Key words: anagrams, Saturnian, arithmetic approach, intentionality, Freud, subconscious.

تقديم:

ساهمت ظهور المصادر الأصول^{*} على يد اللساني روبرت غودل (Robert Godel)، في الكشف عن كهوف ومتاهات جديدة في الفكر السوسيري، فتعرفنا فيها على سوسير الفيلولوجي- كما كان يتظاهر أمام الساحة اللسانية- ووجدنا فيها سوسير البنيوي الساخط على المسار الذي انتهجته دراسات معاصريه، والمدهش من كل ما تقدم هو سوسير الأدبي الذي اشتغل في حلقة الليل وبخفاء في نظرية الجنس التصحيفي

* المؤلف المراسل.

افتراض اللغوي في دفاتر ملاحظاته غير منشورة حول الجنس التصحيفي، أن هنالك عملية استنساخ صوتي منظمة تبني هياكل التراكيب الشعرية القديمة، كأن هناك دفنا مدونا أو ومضات موسيقية ترغب في السطح، وسعى إلى إضفاء الشرعية على هذه النظرية، من خلال نهج حسابي يتوخى الشمول والتفصيل والدقة، فامتازت دراسته بالبراعة التحليلية والاستبصار الفكري، والتزم اللغوي بصمت مذهل حول هذا النموذج الشعري الغير مكتمل، لعدة أسباب، إلى أن جاء جان ساتروبنسكي (Starobinski Jean) وجعل صمته يتكلم، وأثار هذا البحث نقاشات محتدمة، فرفع البعض نظرية الجنس التصحيفي إلى مرتبة الثورة السويسرية الثانية، بينما يذهب البعض الآخر إلى النظر إليها على أنها مجرد بحث مضلل، وفراغ كاذب.

ومن هذا الإرهاق الجدلي لنا أن نسأل: ما هو نهج سويسير في دفاتر ملاحظاته؟ ما سبب عدم نجاح نظريته؟ هل كان الجنس التصحيفي نسيجا من الخيال المحموم أو حدس مثمر؟ إذا لم يكن التععيد الصوتي المبدأ المنظم للنصوص القديمة، فماذا يكون ذلك التقليد الغامض؟ لعبة تأويلية غير متسقة؟ تكهنات قارئ؟ أو أنه إلحاح الحرف في اللاوعي؟ هل نهاية خيوط هذا اللغز ستكون مع سيغموند فرويد؟

أولا- النهج السويسري في دفاتر الجنس التصحيفي:

لفترة طويلة ارتبط اسم فردينان دو سويسير (de Saussure) ب (كتاب محاضرات في اللسانيات العامة) (le cours de linguistique générale) وبالدراسات التاريخية أيضا، وبعد حوالي خمسين عاما فقط من وفاته، تم اكتشاف مجال بحثي آخر، حول الجنس التصحيفي في الشعر الهندو أوروبي، قدم فيه اجتهادات لدراسة الكلمات التي تعيد إنتاجها المقاطع الجانوسية في الأبيات الشعرية، وظلت هذه المصادر الأصول >> حوزة عائلته لمدة نصف قرن، ثم تم إيداعها مع بقية المخطوطات السويسرية، من قبل ابني اللغوي في مكتبة جنيف، ويعود أول ذكر علني لها إلى روبرت غودل، الذي أشار إلا أنها الجزء الأكثر أهمية من المخطوطات التي تركها سويسير، إلا أنه لم يكن دافعا قويا لدراستها، لكنه أبلغ زميله في الأدب الفرنسي جان ساتروبنسكي، الذي نشر هذه المقتطفات الأولى في مقال عام 1964م¹

ثم توالى مقالاته في هذا مضمار، عمل من خلالها على استقرار الآليات التي انتهجها سويسير في دفاتر ملاحظاته، وقام بجمع هذا العمل في كتاب عنوانه ب "les mots sous les mots" "الكلمات تحت الكلمات"، واعتبر هذا الاكتشاف الثورة السويسرية الثانية، ومن المحتمل >> أن سويسير بدأ بحثه عن الجنس التصحيفي في عام 1906، واستمر في ذلك حتى الأشهر الأولى من عام 1909، وقد أمضى وقتا طويلا هناك، بناءً على عدد الدفاتر المتبقية لديه التي كرسها لهذه المشكلة².

اختصرت أسطور هذه الدفاتر تمزقه بين جنون اليقين و صدقية الوهم، كان هدفه إثبات فرضية قائمة على الوعي الكامل في إدخال أسماء صوتية في الممارسات الشعرية القديمة، على شكل شفرات يمكن بشيء من التدقيق والتحليل الحذر سماع همسات الآلهة، قدم لنا اللساني في هذا العمل تفسير بنيوي للتكوين الشعري اللاتيني واليوناني، متوسعا ليشمل بتحليلاته الشعر الهندو أوروبي.

ومن الواضح أن تاريخ بدأ عمل سوسير على هذه النظرية، معاصر لإلقاء دروسه في اللسانيات العامة، شكل هذا العام نقطة تحول مزدوجة في نشاطه العلمي، وكان دافعا لمجموعة من اللسانيين وفي مقدمتهم ميشال ريفاتير (Michel Arrivé) للبحث عن انعكاسات الجنس التصحيفي في شظايا الدروس، من خلال مبدأ الخطية التي تصبح في الدفاتر عملية عشوائية وممارسة غير منظمة تكسر قيود المكان، بالإضافة إلى التطور التعاقبي الذي يتحرر في هذا اللون من الممارسة من أسوار الزمن، وسنفصل أكثر في هذه النقطة في النماذج التطبيقية التي عمل عليها سوسير.

ولد هذا النظام الجديد، مثل ومضة من الفكر التأمل التأملي، حيث فقد اللساني نفسه بيوم من الخمول في عام 1905 أمام نقش لاتيني، معروف باسم saturnian*، ومتسلحا بخبرة في تحليل تكوين الشعر القديم الذي اكتسبه من خلال البحث المستمر في الشعر الجرمانى*، كان متأكدا من أنه لاحظ بعض "صوتيات الأصوات" التي تتطفل على النصوص التي يقرأها³. كان متأكدا من أن هناك استنساخ صوتي، يظهر في مساحة نصية معينة، فكأنما الكلمة تنسج في شبكة متسقة في الأعماق كلمة أخرى، كان على أتم اليقين بأن وجودهم لم يكن وليد الصدفة، أو أمر عارض، أو قيد اعتباطي، وافترض أن هذه الأسماء سواء للآلهة أو الأبطال المنتثرة في حفريات النصوص القديمة، قد تكون إحدى الممارسات التراثية، تقوم على تثبيت الاسم بتوريته في شكل شبكة منظمة داخل النص.

وهذا ما توضحه الرسالة المنتشية بسكرات النصر، يزفها الأستاذ إلى تلميذه أنطوان مايي Antoine (Meillet) بتاريخ 14 يوليو 1906 >>> يمكنني أن أخبرك أنني الآن أحقق النصر على طول الخط. لقد أمضيت شهرين في استجواب الوحش، ولم أتحرّك إلا ضده، لكن لمدة ثلاثة أيام كنت أسير بالمدفعية الثقيلة فقط...تمكنت من الاحتفاظ بمفتاح كوكب زحل بطريقة ما، وهذا الأمر أكثر تعقيدا مما يتخيله المرء. إن ظاهرة الجنس...التي لاحظناها في كوكب زحل ليست سوى جزء من ظاهرة أكثر عمومية، وبالأحرى كلية تماما...تخضع مجمل مقاطع كل سطر لقانون الجنس، من المقطع الأول إلى الأخير؛ وبدون حرف ساكن واحد، ولا علاوة على ذلك حرف متحرك واحد، لا يتم أخذها في الاعتبار بدقة، كانت النتيجة مفاجئة للغاية لدرجة أن المرء يدفع إلى التساؤل كيف يمكن لمؤلفي هذه الأبيات..الحصول على الوقت للانغماس في مثل هذا اللغز: لأن the saturnian هي لعبة صينية حقيقية...سأحتاج إلى رسالة كبيرة لمؤامة الأمثلة ولكن هناك حاجة إلى سطرين فقط لإعطاء القانون: لا يسمح لحرف متحرك بالظهور في saturnian إلا إذا كان لديه حرف العلة المقابل في مكان ما في السطر وفق قانون الاقتران...يوجد دائما رقم زوجي لأي حرف ساكن مهما كان.

لكن الأمر يذهب إلى أبعد من ذلك...إذا كان هناك أي بقايا غير قابلة للاختزال، إما في حروف متحركة، وهذا يحدث بالضرورة إذا كان عدد مقاطع البيت فرديا، وإما في حروف ساكنة...لا توجد إدانة على الإطلاق لهذه البقايا...فالشاعر يأخذها بعين الاعتبار... فنراه يظهرها مرة أخرى في البيت التالي كبقايا جديدة تقابل فيض الفقرة السابقة. هذا هو التحقيق الأكثر إمتاعا للقانون.⁴

لاحظ سوسير في شعر ساتورنيان أو شعر كوكب زحل الغامض الذي لا يخضع لأي مخطط معروف للمقاييس الكلاسيكية، ورود كل صوت بشكل متساو، سواء أكان حرفا متحركا أو حرفا ساكنا، وفق قانون الاقتران، والذي يقوم على مضاعفة استخدام أي حرف مستخدم لأول مرة داخل كل سطر، تقترن هذه العناصر الصوتية على التوالي بحيث يعطي مجموع الحروف عددا زوجيا لكل سطر، وإذا تبقى عنصر صوتي منفرد يتم أخذه بعين الاعتبار في السطر الثاني، وعليه فهذه الممارسة حسب المحلل قائمة على ازدواجية واعية ومحسوسة لدى الشاعر، إن هذه الأصوات وفقا لقانون الاقتران جاءت للمبالغة في الدلالة على المعنى السطحي للبيت وفقا للمعنى المشفر لحنا؛ أي أن الشاعر كان يقوم بنشر المقاطع الصوتية في الأعماق الدلالية من خلال تنظيم الآيات في شكل وحدات معجمية تكون صدى للبنية العميقة.

ولإضفاء الشرعية على فرضية وجود تراكيب أصلية مدفونة تحت الموروث الكلاسيكي الغربي، عمد الأستاذ إلى إحاطة نفسه بضمانات منهجية، لكي لا يغرق في هذيان الوهم وينساق وراء فراغ كاذب، فسعى إلى وضع منهج يقوم على القواعد الحسابية التي تحكم العناصر الصوتية، فأقام فرضية التنظيم الكمي، والتي تفرض على الباحث طريقتين: الطريقة الإحصائية أولا وقبل كل شيء، التي استخدمها على نطاق واسع، ليس لإحصاء آيات هوميروس ولكن أيضا لحساب الوحدات الصوتية المختلفة "المقاطع، الصوتيات، الحروف الساكنة... الخ"، في القصائد السنسكريتية واليونانية والألمانية والفرنسية.⁵ ارتكز المحلل على النهج الإحصائي الاستدلالي لأنه أفضل السبل للوصول إلى الحقائق، فالمادة الصوتية الخام وفق هذا التحليل تظهر في عدد زوجي في كل آية، وإذا كان هناك بقايا أصوات منفردة، يأخذها في عين الاعتبار في السطر التالي، وقد توصل إلى الدقة النظامية في هذه الممارسة بالاعتماد على الملاحظة والتخمين واختبار الفرضيات حتى توصل إلى هذه النتيجة المنطقية.

ومن الواضح أن المحلل توسع من مدونة هوميروس إلى الشعر الهنديو أوروبي آملا في الوقوف على مبدأ القصيدة، الذي يعتبر البنية التحتية لهذه الفرضية، بانتفائه تسقط لبنات هذه النظرية الواحدة تلو الأخرى.

أما الطريقة الثانية التي انتهجها وهي حساب الاحتمالات أو حساب الفرص، وذلك بغرض ترجيح كفة الموضوعية و التخلص من شك الصدفة، الذي يزلزل من قيمة هذه الفرضية >> يتصور سوسير حساب احتمال الحصول على الجنس التصحيفي في نص ما حسب العدد المحدود من الأصوات في اللسان، ولقد قام بالتخلي عن هذا النهج الذي من شأنه أن يتحدى علماء الرياضيات أنفسهم⁶. إن حساب الاحتمالات والقائم على أرجحيه وقوع حدث من بين مجموعة من الأحداث، للاستدلال على التكرارية المتوقعة للأحداث، يؤدي أحيانا إلى دقة في النتائج لكنها لا تخلو من شبح الصدفة.

وبما أنه بالأمثلة تتضح الفكرة، سنسوق نموذج من شعر ساتورني قام المحلل بالتطبيق الجنس التصحيفي عليه

كافية بلهوشات الجناس التصحيفي بين كونه ظاهرة أدبية حقيقية أو مجرد خطوات تائهة في الفكر السوسيري

هذا البيت مأخوذ من قصيدة التنبوءات التي مطلعها "أيها الرومان يا سكان منطقة الماء الأبيض"، يختصر البيت هنا باسم علم، إنه اسم أبولو APOLO، الذي يقبل سوسير طريقة كتابته القديمة بلام واحدة، ثم يشرع بادئ ذي بدئ في تفحص الشطر الثاني، والاسم الذي يبحث عنه يجده متواريا بالطريقة التالية:

AD MEATEMPL APORTATO

A P L O O

شرح البيت: ليقدم المنتصر قربانا عظيما لمعبدي.

نرى أن حروف كلمة APOLO تظهر "غير مرتبة"، ينبغي نقل O الأولى قبل L التي تسبقها. ويكتفي سوسير بخصوص هذا الشطر بملاحظة أن L تحتك بـ APO لكن من الجانب الغير مناسب، ولا يبدو أن ذلك يقلقه قليلا.

ويبدو موقف سوسير أكثر وضوحا فيما يتعلق بالشطر الأول، وقد درسه بعد الثاني لأنه في رأيه أقل جودة.

DONOM AMPLOMVICJOR

.⁷ A P L O O

هذا ليس كل شيء في هذا الباب إذ يمكن لعنصرين من عناصر كلمة من الكلمات المركبة أن يكونا "معكوسين في تنظيمها المتتالي"، فنجد أن اسم العلم المركب هيراقليطس HERACLITUS، يرد مرتبا على الشكل التالي: CLITUS-HERA، ويصبح في نص الجناس التصحيفي من الممكن فضائحيا ترتيب الوجدتين في ترتيب غير مهم: فـ CLITUS-HERA و CLITUS-HERA هو الشيء نفسه⁸

لا يقدم لنا المحلل تفسيراً يشفي سلطان المنطق حول الانزياحات الكثيرة المنتشرة في المقاطع الشعرية، فهي حسبها لا تعدو أن تكون في أغلب الأحيان من الجوازات الشعرية، التي ترخص للشاعر كسر بعض القوانين المتعارف عليها، لغرض الانسجام الموسيقي. ولنا أن نسأل هل هذه التجاوزات ضرورة الشعرية؟ أم أن سوسير يقوم بترميم كل الثغرات في هذه الفرضية لإضفاء الشرعية عليها؟

ويذهب اللساني ميشال أريفيه إلى دراسة هذه النماذج من أفق الدروس في اللسانيات العامة، حيث يقول >> يبدو لي بالبداهة أن نص الجناس التصحيفي هنا هو محاكاة دقيقة لما في الدروس، آية ذلك أننا نجد "الصفة الخطية للدال" مذكورة بدقة، وفي الوقت نفسه معكوسة، وليس في اللسانيات استثناء من مبدأ "التتابع"، وهو اسم يطلق في بحث الجناس التصحيفي – وبطريقة أكثر اتساقا- على ما يسمى في الدروس "الخطية" وفي المقابل، يطرح السؤال نفسه "في المجال البالغ الخصوصية" الذي هو الجناس التصحيفي: إذ لا

يبدو أن التتابع المكاني – الزماني مطرد فيه... كما أن (الممارسة الجانوسية التصحيفية) لا تتطور، إنها تظل متطابقة مع نفسها دون أدنى تغيير، عبر عدة قرون، بل عدة آلاف من السنين»⁹.

لاحظ ريفاتير الخرق الكبير الذي يتعرض له مبدأ الخطية في دفاتر الجنس التصحيفية، على مستوى دالها من كسر لقيود التتابع المكاني، كما لاحظ أن هذه الممارسة لا تخضع لمبدأ التغيير والتطور، بل تظل محافظة على شكلها عبر الزمن، عكس ما يخضع له اللسان من تطور في بنيته، وبذلك تكون هذه الممارسة أحدثت قفزة على مبدأ الخطية ومبدأ التطور التعاقبي، ومن هذه النقطة حاول ريفاتير إقامة جسر بين دفاتر الجنس التصحيفي ودروس اللسانيات العامة لإثبات أن سوسير أراد من خلال هذه النظرية دراسة العلامة اللسانية، وقد سلك العديد من الدارسين هذه الطريقة في سياقات القراءات الكثيرة لهذه الدفاتر.

وفي اعتقادنا أن دراسة الأستاذ للجنس التصحيفي في الشعر الهندو أوروبي، كان لإثبات أن هذه الممارسة هي السمة المعتادة للشعراء في ذلك الوقت، وليس قراءة لمبدأ الخطية ومفهوم العلامة من منظور المقرر الدراسي في اللسانيات العامة كما كان يعتقد.

بعد أن قام سوسير بتثبيت فكرة الممارسة الجانوسية في الموروث الكلاسيكي عن طريق النهج الحسابي، سعى إلى افتراض أصل هذه الممارسة، وكيف ظهرت في أصول العملية الشعرية كنموذج مشترك وتوصل من وإلى صعوبة الوصول إلى دليل منطقي حول أصول هذه الممارسة، حيث يذهب للقول بأنه سيكون من الخطأ الاعتماد في أي وقت على سبب منطقي، ما الذي نعرفه عن السبب الذي دفع الجنس التصحيفي إلى القطع الغنائية الصغيرة التي نضعها في القاعدة؟ ربما كان السبب في الفكرة الدينية أن الدعاء، الصلاة، الترنيمة، لم يكن لها أي تأثير إلا إذا اختلطت مقاطع الاسم الإلهي بالنص، وربما كان السبب غير ديني، وشاعري بحث، لذلك فإن إهداء الرغبة في قول سبب وجود الشيء... إن مسألة الأصل... سلسلة لا نعرف حتى الرابط الأول منها على وجه اليقين¹⁰ أياً كان أصل هذه الممارسة الجانوسية دنيماً أو شعرياً، تبقى في آخر الأمر سرا محفوظاً بعناية، قيد طمست ملامح انبثاقه الأولى.

كأن المحلل هنا أراد غلق الباب أمام الجدالات العقيمة، التي لا تزيد إلا من كثرة الفرضيات، وتشغل الدارس عن الفكرة الرئيسية والهدف الحقيقي، كما حدث في أصل اللسان، ويعلق سوسير على هذه النقطة بقوله <<إن مسألة أصل اللسان لم يعود لها وجود، إنها قضية تافهة شأنها شأن قضية منبع الرون، إن لحظة التكوين ليتمكن القبض عليها كما حدثت إننا لا نراها>>¹¹.

بعد هذا النهج الحسابي، وكذا افتراض أصول هذه الممارسة، باقية أمام المحلل أكبر عائق في طريق هذه النظرية، وهو حجر القصدية في هذا اللون من الممارسة، فبعد أن درس نقوش ساتورنيان، وقصائد هوميروس، والترانيم الفيديّة، والملحمة الجرمانية.. الخ، افترض أن هذه الممارسة تم نقلها سرا من المعلم إلى التلميذ لذلك بدأ في البحث عن والعثور على الجنس التصحيفي بين شعراء العصر الجمهوري ثم طوال العصر الإمبراطوري،

واكتشف نفس العملية في الأعمال النثرية، وتابع فحص الشعر اللاتيني في العصر الحديث فدرس شعر شعراء عصر النهضة أو اليسوعيين الغامضين في القرن السابع عشر.¹²

وبما أن سوسير عاجز في كل هذه القضية الغامضة عن الحصول على شهادة واحدة لمؤلف قديم حول قواعد تكوين الآيات في النصوص الكلاسيكية، ولكي يقطع الشك باليقين، ويحسم أوراق هذه اللعبة، قام بالتماس شهادة شاعر معاصر له، وهو الشاعر الايطالي جيوفاني باسكولي (Giovanni Pascoli)، يكتب اللغوي ليسأله عما إذا كان الجنس التصحيفي الذي اكتشفه في قصائده نتيجة صدفة أو نية شعرية واعية >> سيكفي اثنان أو ثلاثة من الأمثلة لإطلاعك على السؤال الذي طرح في ذهني، وفي نفس الوقت للسماح لك بإجابة عامة، لأنه إذا كانت الصدفة وحدها على المحك في هذه الأمثلة القليلة، يتبع على وجه اليقين أنه هو نفسه في كل الآخرين.. هل هو عن طريق الصدفة أم بقصد، في فقرة مثل...تم العثور على اسم FALERNI محاط بالكلمات التي تعيد إنتاج مقاطع هذا الاسم

FACUNDI CALICES HAUSERE ALTERNI

¹³<<FA AL ER /AL- ERNI

وكان رد باسكولي على أنها ليست أكثر من مجرد صدفة لا تدل على شيء؛ والأمثلة المقدمة لا يمكنها أن تتخذ قاعدة للحديث عن مبدأ عام أو ظاهرة عامة في الأدب الهومييري أو الفيدي أو اللاتيني¹⁴

لكن الأستاذ أصر على موقفه لذلك عاود مراسلة باسكولي مؤكدا على أن ظاهرة الجنس التصحيفي ليست صدفة، وما كان رد باسكولي على الإرهاق الفكري الذي يفتك بسوسير إلا الصمت¹⁵. ويعد هذا الأمر من الدوافع الأساسية التي عجلت بإنهاء التحقيق في فرضية الجنس التصحيفي نهائيا.

ثانيا: النقاط العمياء في نظرية الجنس التصحيفي :

لنا أن نسأل عن الصمت الذي لثَّم به اللساني دفاتر ملاحظاته بعد كل هذا الجهد المبذول الذي استنزفه فكريا ونفسيا طوال ثلاث سنوات، هل هو بسبب انتفاء وجود آثار للقصدية في النصوص التي تقصها ؟ أو هو بسبب ضعف يقينه من نتائج النهج الحسابي؟ هل سبب عزوفه عن نشر الدفاتر الرهاب المعرفي، أو الخوف من أن تكون أفكاره تحت المجهر، ويكون بذلك عرضة للنقد الجارح ؟

1- يرجع الدارسون فتور هذه الانتفاضة التفاؤلية إلى غياب دليل قاطع على صدقية ما توصل إليه، فلو كان الجنس التصحيفي أحد العادات التي بصم بها الشعر الهندوأوروبي، لا تم ترك أي إشارة يهتدي بها الباحث

كافية بلهوشات الجنس التصحيفي بين كونه ظاهرة أدبية حقيقية أو مجرد خطوات تائهة في الفكر السوسيري

إلى هذه الممارسة في مورثهم الكلاسيكي¹⁶. وهذا للأسف ما لم يستطيع سوسير التحقق منه سواء في الموروث الشعري القديم أو الحديث، وكانت هذه هي الحلقة الغائبة من النموذج الغير مكتمل.

2- فشل البيان الإحصائي لنهج التركيبات العددية "الصوت بالصوت"، فحسب فيديريكو برافو (Federico Bravo) يمكن الحصول في قصيدة سان رافائيل للشاعر الغرينادي فيديريكو جارسيا لوركا، بسهولة على أسماء أخرى للمدن الأندلسية، بغير الاسم الجغرافي قرطبة، بدءا من هذه السطور ولكن مع اختيار الأصوات الأخرى والجمع بينها بشكل مختلف

Coches cerrados llegaban
a las orillas de juncos
donde las ondas alisan
romano torso desnudo.

فالسطر الثاني من القصيدة، على سبيل المثال يسمح لنا بالحصول على SEVILL أو JAE أو CORDOBA

1. a las orILLAS dE jUncos = SEVILLA.
2. a las orillAs dE JuNcos = JAÉN.
3. A las ORillas De jUnCOs = CORDOBA.

17 <<

بالكاد شك المحلل في أصول العملية التي انتهجها، فتحول السلاح الذي اتخذه كدليل قاطع على صدقية نظريته، والدرع الحامي من الجوف الساخر ومن العدم المخادع، القطعة التي ستهدم لعبة الينجا، وتفتح الباب أمام التلاعب النصي، وتصبح هذه الممارسة عبارة عن لعبة تأويلية غير متسقة، عبارة عن تكهنات قارئ، وعليه إذا كانت الحقائق في كثير من الأحيان تبدو واضحة فإن تفسيرها يبقى بعيد المنال.

وقد بدأ سوسير يكتشف هذه الحقيقة بنفسه، ففي رسالة مؤرخة في نوفمبر 1906 إلى أنطوان ميه، وجه إليه شكره لأنه ذكره في خطابه الافتتاحي في كلية دوفرانس، وأبدى له في نفس رسالة قلقه حول هذه الفرضية، وخوفه من أن تكون كل العلامات التي يتبع أثرها مجرد وهم لا أساس له من الصحة، ودفع له ببعض دفاثره طالبا منه الصراحة التامة، وأن يكون عادلا في حكمه، وينقذه من مخالب الجنون إن جانب الصواب، وهذا مقتطف قصير من الرسالة >> ولكنني سأضيف على الفور لهذا الطلب، الذي كنت خططت لتقديمه...قراءة الملاحظات التي دونتها حول الجنس التصحيفي في قصائد هوميروس التي سجلتها من بين دراسات أخرى، أثناء البحث عن شعر زحل؛ والتي أستشيرك بشأنها بشكل سري، لأنه يكاد يكون من المستحيل على الشخص الذي لديه فكرة أن يعرف ما إذا كان ضحية وهم، أو إذا كان هناك شيء صحيح هو أساس فكرة،

أو كان هناك نصف صحيح فقط، وأثناء البحث في كل مكان عن شخص يمكن أن يكون مدققا لفريضتي، لم أرك إلا أنت»¹⁸.

يلاحظ القارئ فرقا شاسعا بين أول رسالة بين الأستاذ وتلميذه المنتشية بلذة النصر والمشحونة بكل أطياف الثقة بالنفس، وبين هذه الرسالة التي تؤكد هذه القضية لم تكن بذلك الوضوح والسهولة كما كانت تبدو، فكلما غاص في أعماقها أكثر تشابكت وتعقدت أكثر، وكلما حاول الإمساك بطرف منها انفلتت منه باقي خيوط البكرة.

3- زادت الشكوك التي عبر عنها مراسيله، حول حقيقة السراب الذي يتبعه، من يقينه أنه كان ضحية وهم، ففي رد التلميذ على رسائل الأستاذ يقول «>> يجب أن تصدر العقيدة ببراهينها الجوهرية...أستطيع أن أرى أنه سيكون هناك بعض الشك»¹⁹. كما أن صمت باسكولي عن رسالة سوسير المتحرق إلى أي صدى تأيد، كانت القشة التي قسمت أوهامه، وحملته في صمت على دفن دفاتر الجنس التصحيفي في قبو مظلم.

4- أما السبب الأخير الذي أعرض بسببه عن نشر ليس دفاتر الجنس التصحيفي، بل أفكاره في الانعكاسات السيميائية في الحكاية الخرافية، ودروسه في اللسانيات العامة، هو على حد تعبيره في ورقة ممزقة، رهاب المعرفة الذي لازم رعشة قلمه إلى آخر أنفاسه، هذا الخوف الوسواسي أصبح انعكاس صادق للأعماق الفكرية لسوسير، بما تحمله من جنون وعقلانية، من جرأة وخوف، من توتر وإرهاق جدلي يمزغه وهدوء يبيده، فكان صمته يخبرنا كل شيء. «>> أعترف لك بأنني أشعر برعب شديد من القلم، وأنّ هذه الكتابة تجلب لي عذابا ليتمكن تصويره....عندما يتعلق الأمر بالنسبة لي بحقيقة أن أي نظرية واضحة، كلما كانت أوضح، زادت صعوبة وصفها في علم اللسان!»²⁰. كما يوضح محقق الدفاتر فإن سوسير يشعر بالوضوح ينزلق من بين يديه، فوضوح القضية يخفي وراءه الكثير من الانزلاقات والمتاهات الفكرية، فبين بداية الجملة ونهايتها الكثير من المخاطر التي تنتظر موضوع البحث، وللوصول إلى القانون الذي يحكم الفرضية، لابد من العمل على إعادة صيغة مستمرة، للوصول إلى البنية التحتية التي تؤسس موضوع الدراسة.

مهما كانت الشائعات التي تدور حول هذه النظرية، من كونها مسألة حظ، صدفة عابرة، تكهنات لا أساس لها من الصحة، إلا أن الحقيقة المؤكدة هي أن هذه الممارسة التي اكتشفها سوسير تظل إشكالية وسؤال عالق دون إجابة.

ثالثا: فحوى التراكيب الأصلية المدفونة تحت آيات الشعراء:

كان اكتشاف سوسير الأكثر جرأة موضوع بحث للعديد من الأعمال الأدبية والفلسفية والنفسية والشعرية، وتباينت ردود الفعل بين الافتنان والرفض والصمت، فهل كان الجنس التصحيفي بحث مضلل أم طريقة ثانية لوجود النص؟.

يرى فيون بينيت (Fionn Bennett) بأن هذه النظرية نسيج من الخيال المحموم، فلا يوجد دليل قوي تقييم به لبناتها أمام سيل الشكوك >> «إن أي شخص سمع بنظرية فردينان دو سوسير عن استخدام الجنس التصحيفي في الإنتاج الشعري المبكر، سيعرف أن المشروع يعتبر عموماً فشلاً ذريعاً، فهي لا تعدو أن تكون "فكرة مضللة غير سعيدة" و"تسلية سخيفة" و"تحقيق عقيم" وباختصار "كارثة"، فسوسير حاول تعريف التعبير الصوتي في الشعر القديم على أنه جنس تصحيفي، وكان في الواقع شكلاً من أشكال "القافية"»²¹. يذهب فيون إلى أن الجنس التصحيفي لا يعدو أن يكون قافية منتشرة في النص.

إن ظلال الذاتية التي بصمت النهج السوسيري، بالإضافة إلى انتفاء مبدأ القصديّة، أضعف من قيمة النظرية، مما أدى ببعض الدارسين لوصف صنيعه بأنه مجموعة من قطع الغيار، فكأن حدس سوسير أصاب عندما قرر الاحتفاظ بذلك القيد الاعتباري في الموروث الكلاسيكي لنفسه.

إن النقاد الذين أنزلوا وإبلا من التهمك والسخرية على هذه النظرية، تناسوا بأننا في حالة عدم إثبات فساد ما توصل إليه سوسير، بالمثل ليتمكننا القول بهذين الباحث، فهناك أسماء منقوشة في الأعماق الصوتية تقوم بتعزيز المعنى السطحي للنص.

يكتب سوسير >> «أن علم النفس سيتولى عملياً مسؤولية علمنا، لأنه سيعرف أن اللسان ليس أحد فروعه بل هو ركن أساسي من نشاطه الخاص»²². فهل الأسئلة التي تركت معلقة في الجهاز السوسيري يمكن أن تجد لها حلاً في النظام المفاهيمي الذي وضعه زعيم التحليل النفسي "سيغموند فرويد" (Sigmund Freud)؟ أكد لنا جاك لاكان (Jacques Lacan) مرتكزاً على علم النفس الفرويدي بأن النقطة العمياء للاوعي هي التفسير الرئيس للطريق المسدود لنهج سوسير الجانوسي، حيث يقول >> «هناك معرفة لا تعرف نفسها، وهي معرفة يدعمها الدال على هذا النحو... في هذه المرحلة من اللسان، سأل سوسير نفسه عما إذا كان في شعر ساتورنيان، حيث وجد أغرب علامات الترقيم المكتوبة، كانت مقصودة أم لا، هذا هو المكان الذي ينتظر فيه سوسير فرويد»²³.

قدم لنا لاكان من بين جميع الأنساق التأويلية التي قدمها الدارسون لنظرية الجنس التصحيفي، فكرة مقنعة وبناء متماسك حول هذا الأحجية >> «اكتشف سوسير بالفعل إحدى الحالات الخاصة لما عرف "بالحاح الحرف في اللاوعي"، عند قراءة شيء قد كتبه المرء مرة أخرى، من المعتاد أن يكتشف المرء - دون أي معنى لذلك - أنه قد أعاد إحدى الكلمات بمعنيين مختلفين، أو أنه قد استخدم كلمات متماثلة في الرنين في حيز متقارب ضيق، وتفسير ذلك افتراضاً أن الكلمة الرئيسية قد بقيت في اللاوعي القريب، وساعدت في تحديد اختيار الكلمات اللاحقة، لقد أوحى لنا تفسير التحليل النفسي بأهمية القرائن اللفظية من نوعية التورية punning والجنس التصحيفي، في أداء الوعي، وهكذا قد يكون لدى المرء المبرر الكامل للاقتناع بأن اللغة الشعرية poetic التي تخلو من أي أهداف اتصالية محددة، والتي تمثل النطاق الأكبر لعمليات تداعي المعاني. تؤثر في الكم الأكبر لتكرار الجنس التصحيفي»²⁴.

ويمكننا الاستدلال على صدق هذه القضية بشعر شعراء العصر الجاهلي، الذين كانوا يألون أبيات قصائدهم وفقا لأوزان غاية في الدقة، دون أن يكون لديهم سابق معرفة بهذه البحور الخليلية، وكأن هذه لمعرفة التقنية امتلكها الشاعر العربي عن طريق السليقة دون وعي تماما منه، كأنما تسربت من البيئة الصحراوية التي كان يعيش فيها و ترسخت في اللاوعي.

وعليه فإن الموسيقى الصوتية التي توصل إليها سوسير عملية ليست عرضية بحته ولا واعية تماما، حيث تسلت هذه الأصوات إلى العقل الواعي في شكل شبكة نصية مشفرة يحركها الجانب المظلم من اللاوعي، وكان خطأ المحلل أنه درس هذا الانعراج على أنه ممارسة واعية تماما.

خاتمة:

إن دراسة سوسير لعملية استخدام الجنس التصحيفي في الموروث الشعري الكلاسيكي الغربي، لم تكون فشلا ذريعا، ولا خدعة مضللة، ولا لحظة من لحظات الجنون السوسيري، بل كانت مجرد نموذج غير مكتمل، لما عرف في علم النفس بإلحاح الحرف في اللاوعي، كانت هذه الموسيقى القادمة من البنية العميقة سفيرة للاوعي، وهذا هو التفسير الذي يتناسب مع قافية العلم، والجواب الأمثل حول الصمت السوسيري.

الهوامش:

* المصادر الأصول: هي المنشورات التي قام اللسانيون بإعادة تحقيق أفكارها ونشرها، باعتماد على محاضرات الطلبة والمخطوطات السوسيرية المكتشفة سنة 1996م في مشتل البرتقال، والتي تم إيداعها بمكتبتي جنيف وهارفارد، وتم تحقيق ونشر وترجمة الكثير منها، وأهمها مخطوط كتاب سوسير في اللسانيات العامة، الذي حققه سيمون بوكيه و رودلف أنغلر، ونشر ضمن السلسلة الفلسفية لدار غليمار سنة 2002، فكتاب (محاضرات في اللسانيات العامة) أو (نشرة 1916م) لم يعد يمثل المرجع الوحيد لقراءة فكر سوسير؛ حيث أصبحت مسالك القراءة ومناظرتها متعددة

¹ -Pierre-Yves Testenoire, recherches sémiotiques semiotic inquiry l'ombre du cours (1960.1980), le cours de linguistique générale 100 ans après, association canadienne de sémiotique, université paris-sorbonne, volume34,n1 2 3, 2014,p210.

² -Jean Starobinski, les mots sous les mots les anagrammes de Ferdinand de Saussure, Lambert-Lucas limoges Gallimard, paris,1971, p7.

* شعر ساتورنيان: أو كما يعرف بشعر كوكب زحل هو أقدم أشكال الشعر اللاتيني، لا تزال خصائصه لغزا حتى اليوم، لم يبق منه سوى 132 آية ، تم حفظ 95 آية أدبية كاقْتباسات في كتب نحوية لاحقة، بالإضافة إلى 37 آية في نقوش جنائزية أو تكريمية، أصل الاسم غير محدد، في الأساطير الرومانية زحل هو أول ساكن وإله الوصاية في المنطقة، لقد تم تخمين أن ساتورني كان بكل بساطة المقياس المحدد لهذا الشكل . زحل (شعر)- (Poetry) Saturnian ويكيبيديا، <https://ar.wikipedia.com/wiki.>، 2021-07-31، 9:10.

³ - Fionn Bennett, Saussure's "anagrams": A case of a cousmatic mistaken identity?, université de reims chompagne, Ardenne, october 2020, p2.

⁴ -Ms. Fr.3962.un brouillon de lettre du 30 juillet 1906 (destinataire Anu), selon, Jean Starobinski, les mots sous les mots ,p20,21,22.

⁵ -Pierre-Yves Testenoire, les anagrammes de Saussure après un demi -siècle, Sorbonne université/histoire des théories linguistiques, p6.

⁶ -Ibid, p6.

⁷ - ويقدم ريفاتير تفسير نفسي لانزياح هذه الأصوات عن أماكنها، يقول <<ألح على هذه الصياغة: يحدث كل شيء كما لو أن POL تصلح لأن تكون POL كما لو أن TUC في لغة أخرى تعادل CUT ولا أضرب هذا المثال صدفة: إنه أحد الأمثلة التي يذكرها فرويد في تأمله الشهير المستوحى من كارل أبيل (carel abel) حول المعاني المتقابلة للكلمات البدائية، حيث يحتل الإبدال الذي يتم دون عارض دلالي؛ أي دون قطع للخطية، مكانة توازي في أهميتها التضاد>>، ميشال أريفيه، البحث عن فردينان دو سوسير، تر: محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص219، 220.

⁸ - نفسه، ص221.

⁹ - ميشال أريفيه، البحث عن فردينان دو سوسير، ص229، 222.

¹⁰ -Ibid, p61.

¹¹ - إنكلر 1968، نقلا عن، ميشال أريفيه، البحث عن فردينان دو سوسير، ص46.

¹² -Pierre –Yves Testenoire, des anagrammes chez Homère? De Saussure aux commentateurs anciens, Hal archives -ouvertes, presses de l'ens, 8 apr. 2016, p3.

¹³ -Nava Guiseppe, 1968"lettres de Ferdinand de Saussure à Giovanni paxoli, solen, Pierre –y vestes Tenoire, des anagrammes chez Homère?,p6.

¹⁴ -مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ط1، 2017، 162.

¹⁵ -Federico Bravo, anagrammes sur une hypothèse de Ferdinand de Saussure, Lambert-Lucas limoges, 2tirage, 2011p66.

¹⁶ -جوناثان كلر، فردينان دو سوسير (تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات)، تر: محمود حمدي عبد الغني، المجلس الأعلى للثقافة، 200، 126.

¹⁷ - Federico Bravo, anagrammes sur une hypothèse de Ferdinand de Saussure , p22.

¹⁸ - Roman Jakobson, la premier lettre de Ferdinand de Saussure à Antoine Meillet sur les anagrammes, d'antopologié, avril-juin 1971, p16.

¹⁹ -Ms. Fr3957/3 (lettre reçus par de Ferdinand de Saussure) , Jean Starobinski, les mots sous les mots, p158, 159

²⁰ - Jean Starobinski, les mots sous les mots, p13.

²¹ -Fionn Bbennett, Saussure's "anagrams", p1.

²² - Ferdinand de Saussure, 2002, écrits de linguistique générale, solen, Federico Bravo, anagrammes sur une hypothèse de Ferdinande de Saussure, p66.

²³ - jacques Lacan, 1975, séminaire xx, Federico Bravo anagrammes sur une hypothèse de Ferdinande de Saussure, p151.

²⁴ - جوناثان كلر، فردينان دو سوسير (تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات)، ص127.

قائمة المصادر والمراجع :

1-Federico Bravo, anagrammes sur une hypothèse de Ferdinand de Saussure, Lambert-Lucas limoges, 2tirage, 2011.

2-Fionn Bennett, Saussure's "anagrams": Acase of a cousmatic mistaken identité? , université de reims chompagne, Ardenne, october 2020.

3-Jean Starobinski, les mots sous les mots les anagrammes de Ferdinand de Saussure, Lambert-Lucas limoges Gallimard, paris, 1971.

4-Pierre –Yves Testenoire, des anagrammes chez Homère? De Saussure aux commentateurs anciens, Hal archives -ouvertes, presses de l'ens, 8 apr. 2016.

5-Pierre-Yves Testenoire, les anagrammes de Saussure après un demi -siècle, Sorbonne université/histoire des théories linguistiques.

6-Pierre-Yves Testenoire, recherches sémiotiques semiotic inquiry l'ombre du cours (1960.1980), le cours de linguistique générale 100 ans après ,association canadienne de sémiotique, université paris-sorbonne,volume34,n1 2 3, 2014.

7-Roman Jakobson, la premier lettre de Ferdinand de Saussure à Antoine Meillet sur les anagrammes, d'antbopologié, avril-juin1971,.

8- جونانان كلر، فردينان دو سوسير (تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات) ، تر: محمود حمدي عبد الغني، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

9- زحل (شعر)- (Saturnian (Poetry ويكيبيديا ، <https://ar.wikipedia.com/wiki.>

10-مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ط1، 2017.

11-ميشال أريفيه ، البحث عن فردينان دو سوسير ، تر: محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان، ط1، 2009.